مفهوم الحجاج بين الأصول التاريخية والبلاغة الجديدة

إعداد

أحمد حسن محمد الخُرَشي

المدرس المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسوان

رقم التليفون: ٠١١٥١٠٩٥١٥٠

الإيميل: ahmadhasanm092@gmail.com

المستخلص:

يدخل الحجاج – في الدراسات الحديثة – في مجالات معرفية كثيرة، منها اللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، لذلك تعددت تعريفات الحجاج بحسب الميدان الذي يُعرِّفه، ولكن كل هذه الميادين تُجمع على أن الحجاج إنما يهدف إلى إقناع المتلقي بأمر ما، بواسطة مجموعة من الأدوات. وقد فصّل علماء العربية – قديمًا – القول في الحجاج ، لكنهم لم يصلوا إلى نظرية متكاملة حوله؛ فقد جاء الحديث عن الحجاج – عند القدماء – في ثنايا القضايا المطروحة، مثل حجة القرآن الكريم، واحتجاج المشركين والرد عليهم، وكيفية تقديم الأنبياء لحججهم وإقناع أقوامهم بها، ومن ناحية أخرى فقد اعتمد علماء الحديث الشريف على علم الجرح والتعديل اعتمادًا كبيرًا، وهم يعتمد – في أساسه – على حجية الرجال بوصفها شرطًا أساسيًا لقبول الأخذ عنهم أو تركهم، ويضاف إلى هؤلاء أيضًا النحاة والبلاغيون؛ فمن خلال مؤلفاتهم وتقسيماتها يتضح مدى وعيهم بالحجاج وأهميته. كما أنّ الشعر لم يخرج عن دائرة الحجاج؛ فالشاعر يسعى إلى توصيل فكرته للمتلقي، فإذا كان بارعًا في استخدام حججه فإنه يتحول من بناء الحجة إلى بلاغة الحجة؛ وذلك من خلال بناء قصيدته على الأدلة والبراهين، ومن ثم يصل بالمتلقي إلى درجة من القبول والإقناع.

الكلمات المفتاحية:

الحجاج، البلاغة، المتلقي.

Abstract:

In modern studies, the concept of argumentation exists in different fields of knowledge, including linguistics, philosophy, sociology, and psychology. Therefore, the various definitions of argumentation are varied according to every area of the study, but all of these fields are unanimously agreed that argumentation aims to convince the recipient of something through a set of tools.

Although Arabic scientists and scholars tried to detail the concept of argumentation, they couldn't reach a conclusion. There were different forms of argumentation in the past, such as the argument of the Holy Qur'an, the protest of the polytheists, and how the prophets presented their arguments and persuaded their people of them. On the other hand, the scientists of Hadith have relied heavily on the Sciences of Invalidation And Rectification, which depend mainly on the authenticity of men as a prerequisite for accepting or rejecting their talks. Grammarians and rhetoricians also contribute to enrich the concept of argumentation through their writings.

Argumentation theory is included in poetry; the poet seeks to convey his ideas to the recipient effectively. If the poet is proficient in defending his arguments, he can turn the argument into eloquence. If the poem is evidence-based, the reader will be completely convinced of the poet's ideas.

Keywords: Argumentation, Rhetoric, the recipient.

مقدمة:

يدخل الحجاج – في الدراسات الحديثة – في مجالات معرفية كثيرة، منها اللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، لذلك تعددت تعريفات الحجاج بحسب الميدان الذي يُعرِّفه، ولكن كل هذه الميادين تُجمع على أن الحجاج إنما يهدف إلى إقناع المتلقي بأمر ما، بواسطة مجموعة من الأدوات.

كما أنّ الشعر لم يخرج عن دائرة الحجاج؛ فالشاعر يسعى إلى توصيل فكرته للمتلقي، فإذا كان بارعًا في استخدام حججه فإنه يتحول من بناء الحجة إلى بلاغة الحجة؛ وذلك من خلال بناء قصيدته على الأدلة والبراهين، ومن ثم يصل بالمتلقي إلى درجة من القبول والإقناع.

ولقد تعددت المناهج النقدية التي تناولت الشعر الجاهلي بالدراسة، وكلها تسعى إلى " كشف أغوار هذا الشعر، وتجاوز ظاهره نحو عمق يحوي خصائصه المميزة، ويقيّم تجربة شعرية مثّلت لفترة طويلة نموذجًا يحتذى به، ومنوالًا يسير الشعراء على هديه " (١) .

مفهوم الحجاج لغة:

تقدم المعجمية العربية رؤيتها للحجاج بوصفه خطابًا يقوم على الدليل والبرهان، وتكاد تُجمِع المعاجم العربية على ما جاء في **(لسان العرب)** في تعريفه للحِجاج، وذلك على النحو التالي(٢):

- الحَجّ: القَصد، حجّ إلينا فلان؛ أي: قَدِم .

---

(١) الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م، ط٢، ص١ .

(٢) لسان العرب: ابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٢٦/٢ : ٢٢٨ ، مادة (حَجَجَ) [د.ط.ت].

- وحَجَجتُ فلانًا واعتمدته؛ أي: قصَدتُه .
- رجل محجوج؛ أي: مقصود، وقد حَجَّ بنو فلان فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليه.
- قال (ابن السكيت): يقول يكثرون الاختلاف إليه، هذا الأصل، ثم تُعُورِفَ استعماله في القصد إلى مكة للنُسك والحجّ إلى البيت خاصة، والحَجّ: قصدُ التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضًا وسنة.
- قال (الأزهري): ومن أمثال العرب: لَجَّ فَحَجَّ؛ معناه لجّ فَغَلَبَ من لاجّه بِحُجَجِه، يقال: حاججته أُحاجّه حِجاجًا ومُحاجّة حتى حَجَجتُه؛ أي: غَلَبتُه بالحُجَج التي أَدْليتُ بها.
- وقال (الأزهري): الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة، وهو رجل مِحجاج: أي جَدِل.
- والمحجّة: الطريق، وقيل: جادَّة الطريق؛ وقيل: محجّة الطريق سَنَنُه.
- والحَجَوَّجِ: الطريق تستقيم مرَّة وَتَعوَجّ أُخرى.
- والحُجَّة: الدليل البرهان، وقيل: الحُجَّة ما دوفع به الخصم.
- والتحاجّ: التخاصم، وجمع الحُجَّة: حُجَج وحِجاج، وحَاجّه مُحاجَّة وحِجاجًا: نازعه الحُجّة، وحجَّه يَحُجَّه حَجّاً: غَلَبَه على حُجَّتِه، واحتجّ بالشيء: اتخذه حُجّة؛ لأنها تُحَجّ؛ أي: تُقصَد؛ لأن القصد لها وإليها .

وعليه فإنّ الحِجاج عند (ابن منظور) جدال وخصام يعتمدان الأدلة والبراهين، والحُجَّة الواضحة.

أما (**ابن السكيت**) فقد أشار في تعريفه للحجاج إلى ظاهرة دلالية لكلمة (الحَجّ)، وهي التضييق الدلالي؛ حيث كانت تُطلق على كلِّ قصد، فأصبحت تقتصر على قصد

الحَجّ، ومن ناحية أخرى، فهو يرى أن الحجاج يعني الغلبة بالحجة، ويحتج مستشهدًا في ذلك بما ورد من أمثال العرب .

أما في الاصطلاح فليس من السهل على أي باحث أن يحدد مفهومًا معينًا للحجاج؛ حيث يأتي الحجاج في جميع الخطابات اليومية على اختلاف مجالاتها: الأدبية، والبلاغية، والفلسفية، والمنطقية، والإعلامية، والسياسية، وغيرها.

تقول (سامية الدريدي): " صحيح أن قدرة الإنسان المثقف والمختص في ميدان معرفي ما تفوق قدرة الإنسان العادي ذي المعارف البسيطة على الحجاج؛ ولكن ذلك لا ينفي قيام الخطاب اليومي على حجاج مخصوص له بنيته المتميزة وأساليبه المحددة " [١] ؛ فالخطاب الطبيعي- بصفة عامة- لا يخلو من الحجاج؛ لانّ الحجاج مفهوم كبير لممارسات نقدية توجد في كافة مناحي الحياة؛ لذلك عُرف الحجاج منذ القدم.

ولذلك يمكن القول: " إن الحجاج بقدر ما هو مألوف بوصفه ممارسة، وحاضر في كل أنشطتنا اليومية، بقدر ما هو منفلت ومستعص على الإحاطة والتعريف؛ إذ نصادفه في الحوارات بين الأشخاص، وعلى صفحات الجرائد، وفي البرامج والمواد الإذاعية والتليفزيونية، ونلتمسه في النصوص والعروض الإشهارية " [٢] .

ولا تكاد تخلو كتب التراث الإسلامي من تداول مصطلح " الحجاج " أو " الاحتجاج " أو " المحاجة " في عدة مجالات، وبخاصة في المسائل ذات الطابعين: الفكري والفلسفي، وكذلك الأمر عند علماء البلاغة والنحو، والتفسير والحديث.

---

(١) الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، ص٥٦ .

(٢) النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية والسانية: محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م، ط١، ص٧ .

كما أنّ " بلاغة الحجاج حاضرة في الأدب والفن، مثلما هي حاضرة في علم النفس والاجتماع، والقانون والتجارة، والاقتصاد والسياسة، والإعلام بكل فروعه؛ لأنها بلاغة تُوظَّف في إحكام كلِّ ما تصل إليه يدها من علوم ومعارف " (١) .

مفهوم الحجاج في النقد الحديث:

تعددت نظرة النقاد المحدثين للحجاج، وتعريفاته، وبيان الغرض منه، وتقسيماته، وعلاقته بالبلاغة القديمة، وذلك على النحو التالي:

يرى **(جميل حمداوي)** أن الحجاج: " عبارة عن خطاب حواري تواصلي ديمقراطي تشاركي بامتياز؛ ومن ثم، فهو نقيض العنف، والإرهاب، والإكراه، والتطرف، والحرب. كما يستلزم ... الإقناع والحوار، والاختلاف والتسامح، والتفاهم والتعايش" (٢) .

ويشير إلى (الغاية من الحجاج) بقوله: " يعد الحجاج عملية تفاعلية تقوم على مجموعة من العناصر هي: المرسل والرسالة والسامع. ويعد المتلقي السامع أهم من المتكلم الخطيب؛ لأن الهدف من الرسالة التواصلية هو إقناع الآخر ومحجته برهانيًا وعقلانيًا عبر مجموعة من المسارات الحجاجية للوصول إلى الحقيقة والحل الراجح، واستكشاف ردود فعل المخاطَب تجاه الحجاج " (٣) .

وهذا التعريف – مع أهميته – لكنه تعريف عام للحجاج، لا يختص بمجال معين.

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر: محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ٢٠٠٨م، ط١، ص١٣.

(٢) شاييم بيرلمان رائد البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، دار الريف، المغرب، ٢٠٢٠م، ص١٠ [د.ط] .

(٣) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤م، ص٣١ [د.ط] .

أما **(محمد العبد)** فقد وضع تعريفًا جامعًا للحجاج؛ فهو عنده: " جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًا؛ قاصدًا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية " (١) .

كما تعددت تعريفات النقاد الغربيين للحجاج؛ فمنهم من ربطه بمعناه اللغوي، ومنهم من ربطه بالمنطق، ومنهم من جعله مساويًا للبرهان، ومنهم من عرّفه في إطار القانون.

أصول الحجاج في النقد العربي القديم:

عند التوقف أمام نظرة العرب القدماء للحجاج؛ يتبين أنه لم تتبلور رؤيتهم للحجاج لتُشَكِّل نظرية مستقلة،

ولكن جذور هذه النظرية ترجع إليهم؛ ويدل على ذلك تعريفاتهم للحجاج في ثنايا كتاباتهم، وحديثهم عن الحجاج في القرآن الكريم، وفي حديثهم عن البلاغة وتعريفاتها، وفي شروح الأشعار والاحتجاج بها؛ فهم يرصدون ويُقِرُّون الحجاج في الشعر العربي.

ومن ذلك ما ورد عن **(الكميت بن زيد)**؛ فإن القدماء أشاروا إلى حجية شعره، وضربوا به المثل في ذلك؛ فقد روى **(السيوطي)** عن **(أبي عبيدة)** قوله في الكميت: " لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم " (٢). وكذلك الجاحظ؛ حيث يرى أنّ الكميت أوّل من دلَّ الشيعة على طرائق الاحتجاج؛ وروي عنه قوله المشهور في الكميت: " ما فَتَحَ للشيعة الحجاج إلا الكميت؛ وذلك بقوله:

---

(١) النص والخطاب والاتصال: محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤، ص١٤٧ [د.ط].

(٢) شرح شواهد المغني: جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م، ١/ ٣٨ [د.ط] .

فَإنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمُ فَإنَّ ذَوِي القُربَى أحَقُّ وَأوْجَبُ[١]

فالجاحظ يضرب به المثل في حجاج الشيعة لمذهبهم عن طريق الشعر، ويحتج ببيت من الشعر يذكر فيه الشاعرُ الخلافة وقضية توريثها.

كما ورد في (خزانة الأدب) أن (الكميت): " كان جدليًّا، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهرًا بذلك " [٢].

وكذلك التفت النقاد المحدثون إلى هذا الأمر؛ حيث يقول (**شوقي ضيف**) عن طريقة (**الكميت**) في الاحتجاج بالشعر: " إن الذي يلفتنا عنده أنه أنشأ مجموعة من القصائد اشتهرت باسم هاشميات الكميت، وفيها نراه لا يكتفي بمديح العلويين؛ بل يعمد إلى تقرير نِحلَتهم تقريرًا قِوَامهُ الجدل والاحتجاج ... فهاشمياته حجاج وجدال في مسألة الهاشميين، بالضبط كما كان يحاجّ ويجادل الحسنُ البصري وزملاؤه وتلاميذه مسألةَ القدر ... إذ أخرج الكميت الشعر من أبوابه القديمة إلى باب جديد، هو باب التقرير والاحتـــــــجاج للعلويين والدفاع عنهم" [٣] .

وهذا يعد أحد الأمثلة على وعي القدماء والمحدثين بمسألة الحجاج في الشعر العربي.

أما عن (**أصول الحجاج عند القدماء**) فلم تخرج عن الإطار العام للحجاج؛ بوصفه وسيلة لإثبات الرأي واستمالة المتلقي، من ذلك:

---

(١) ديوان الكميت بن زيد الأسدي: تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ط١، ص٥٢٨ .

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ط١، ١٤٤/٣.

(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، ص٢٧٦ [د.ت] .

- **(الجاحظ):**

حيث استمدّ أصول الحجاج من **(علم الكلام)** [١] القائم على البرهنة العقلية في المسائل المتعلقة بالإلهيات والعقائد، كما أنّ كتاب **(البيان والتبيين)** – على سبيل المثال – يعد خطابًا حجاجيًا؛ فقد كان غاية الجاحظ من تأليفه دحض حجج الشعوبية التي طعنت في مَلَكَة العرب في الخطابة؛ بالإضافة إلى إثبات فصاحة العرب، وبيان تفردهم في ذلك، والبرهنة على ذلك عن طريق تقديم الحجج والبراهين، وقد ساعده في ذلك انتماؤه إلى فكر المعتزلة، إحدى الفرق الكلامية في عصره.

" فإن من أهم الفرق الكلامية التي كان لها باع كبير في عملية الحجاج: المعتزلة والأشاعرة؛ فالمعتزلة كانت عقلانية تعطي الأولوية للعقل قبل ورود النص، فترى العقل السبيل الوحيد لمعرفة الصواب والخطأ، والتمييز بين الخير والشر، والتفريق بين الحسن والقبيح ... بينما كانت فرقة الأشاعرة نصية، تعطي الأولوية للنص على حساب العقل " [٢]

لذلك يعد الجاحظ – بمذهبه المعتزلي – " رجل محاجة ومناظرة " [٣] .

وإذا كان المحدثون يرون أن " الأصل في الحجاج أنه نشاط عقلي قائم على حسن اختيار الحجج، وصوغها، وتنظيمها، وإلقائها أو إخراجها، وزمن الإلقاء والإخراج، تكون لصورة المحاجّ الخطيب، وهيأته، وملابسه، وطريقة نطقه، وجهارة

---

(١) **علم الكلام:** هو علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام، وهو علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية، بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها [مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٨٥م، ط١، ١٣٢/١] .

(٢) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، ص١٧ .

(٣) أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: إشراف: حمادي صمود، منشورات كلية الآداب، منوبة– تونس، ص٨ [مقدمة الكتاب] [د.ط.ت].

صوته، وتلونه بالشعور الذي يحكيه، أهمية بالغة " [١] . فإن الجاحظ– قديمًا – لم يغفل هذا الأمر؛ بل أشار إليه، واستشهد على كلامه بواصل بن عطاء، وسيدنا موسى – عليه السلام – ، وغيره مما روي عن العرب من أخبار في هذا الباب.

كما فصّل (الجاحظ) القول فيما يخص الخطيب الجيد من صفات جسدية وملكات ذهنية، ولم يقتصر حديثه على سرد مميزات الخطيب الإيجابية التي تمنح خطابه قبول المتلقي؛ لكنه أشار إلى الخصائص السلبية التي تضعف من موقفه، مثل عيوب النطق، والعي، والحصر، وغيرها مما يعيق التواصل بين الخطيب والجمهور، أو يقطع وصل الحجاج بينهما.

يقول الجاحظ: " وليس، حفظك الله، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت دَرَك الحاجة. والناس لا يعيِّرون الخُرس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز، وهم يذمون الحَصِر، ويؤنبون العييّ، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، وتعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم، وترادف عليهما التأنيب " [٢] .

كما يرى (الجاحظ) أنّ **(واصل بن عطاء)** كان يحتاج للحجاج أكثر من غيره؛ لأنه صاحب نحلة ورئيسهم، وأن اللثغة التي عرف بها كانت حاجزًا أمام قبول حجته، يؤكد ذلك قوله: " ولما علِم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللَّثَغة، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه كان داعيةَ مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على

---

(١) الحجاج الجدلي – خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي: عبد الله البهلول، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ،عمان ، ،٢٠١٣م، ط١، ص٧٠.

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٧، ١٢/١ .

أرباب النحل وزعماء الملل ... رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ... حتى انتظم له ما حاول " (١) .

ويقول عن سيدنا موسى – عليه السلام – : " ومع ما أعطى الله – تبارك وتعالى – موسى – عليه السلام – من الحجة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانيات الواضحة، إلى أن حلّ الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة " (٢)

فالجاحظ يضع الحُبسة بمثابة محنة تُعد عائقًا أمام حجة سيدنا موسى – عليه السلام – وتبليغ دعوته.

ومن ناحية أخرى، فقد أورد الجاحظ تعريفات عديدة **للبلاغة**، جاء في بعضها تأكيده على الحجاج بوصفه أحد أهم أدوات البلاغة، على النحو التالي:

" قال بعض أهل الهند: جِماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة ... ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها " (٣) .

فهو يشير – نقلًا عن أهل الهند – إلى أن البلاغة حسن اختيار الحجج المناسبة بحسب المقام، متخذًا الكناية مثالًا لذلك.

كما يقول: " إنَّك إن أوتيت تقرير حُجّة الله في عقول المُكَلّفِين، وتخفيف المؤنة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ

---

(١) البيان والتبيين: الجاحظ ، ١/١٤،١٥ .

(٢) المرجع السابق، ١/١٤ .

(٣) السابق،١/٨٨ .

المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان ... كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب " (١) .

وهو بذلك يصبغ الحجاج بصبغة دينية، تضمن عدم انحرافه عن الحق، مشيرًا إلى أدوات ذلك، من تقرير الحجة، والتخفيف، والتزيين، وحسن اختيار الألفاظ، ويشير – في الوقت نفسه – إلى أثر ذلك في الدنيا والآخرة؛ فهو يصل بالمتلقي إلى ما يبتغيه، ويحصل على الثواب من رب العالمين .

لذلك حين وصف الجاحظ بلاغة الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان من وصفه له قوله: " لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارَت له حُجّة، ولم يقم له خَصم، ولا أفحمه خطيب ... ولا يحتجّ إلا بالصدق " (٢) .

فالحجاج عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – أحد الدعامات التي تقوم عليها دعوته، وهو حجاج مؤيد من الله – تعالى – ، ومبني على أخلاق الرسول – صلى الله عليه وسلم، وعلى صِدقه .

كما أورد (الجاحظ) تعريف (**عبد الله بن المقفع**) للبلاغة، الذي قيل عنه: إنه لم يفسِّر البلاغة أحدٌ قط تفسير ابن المقفع؛ فقد جعل (ابنُ المقفع) في هذا التعريف الاحتجاجَ وجهًا من وجوه البلاغة، وحالة من حالاتها، وذلك في قوله: " البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج ... " (٣) .

كما أفرد (الجاحظ) جزءًا من كتابه (البيان والتبيين) للحديث عن الخطبة والخطيب، والجمع بين الخطابة والشعر فقال: " وفي الخطباء من يكون شاعرًا

---

(١) البيان والتبيين: الجاحظ، ١١٤/١.

(٢) المرجع السابق، ١٧/٢ .

(٣) السابق، ١١٦/١.

ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغًا مفوهًا بيِّنًا، وربما كان خطيبًا فقط، وبيِّن اللسان فقط ... والخطباء كثير، والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الشعر والخطابة قليل " (١) .

على هذا النحو، يمكن القول: إن الجاحظ كان على وعي تام بالحجاج، ومفهومه، وأهميته في جميع أنواع الخطاب، لا سيما الديني، والمذهبي، كما أنه أدرك وأقر بوجود الحجاج في الشعر بوصفه أحد أنواع الخطاب، وقد كان لهذا الوعي المبكر في النقد العربي القديم أثره على من جاء بعده من النقاد.

الحجاج في النقد العربي الحديث:

توقف النقاد العرب المحدثون وقفات مهمة أمام الحجاج، بالتأليف والدرس والتصنيف، وبيّنوا أوجه الاختلاف بينه وبين غيره من المصطلحات، كما أشاروا إلى مراتبه، وأكدوا على وجوده في الشعر.

جهود المحدثين في التنظير للحجاج:

يعدّ (طه عبد الرحمن) صاحب بصمة واضحة في التأسيس للحجاج؛ وذلك في كتابيه: (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام) و (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي)؛ حيث أورد عدة تعاريف للحجاج؛ فتارة يعده الآلية الأبرز للإقناع، وتارة ثانية يراه فعالية تداولية جدلية، وفي أخرى يصفه بأنه فعالية استدلالية خطابية .

وهو يرى أنّ الفعالية الحجاجية صفة لكل خطاب طبيعي؛ وذلك في تعريفه للحجاج بأنه: " فعَّالية تداولية جدلية؛ فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال ... وهو أيضًا جدلي؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية

(١) البيان والتبيين: الجاحظ، ٤٥/١ .

الضيقة ... وأن يُفهِم المتكلمُ المخاطب معاني غير تلك التي نطق بها؛ تعويلًا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتًا أو إنكارًا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم " (١) .

ومن زاوية أخرى يشير (طه عبد الرحمن) إلى التوسع الدلالي في مفهوم الحجة بقوله: في " وقد توسع معنى الحجة فصار يدل، لا على الإثبات فحسب؛ بل تعداه إلى الدلالة على مجموع قول القائل، إن معترضًا أو مجيبًا " (٢) .

كما يرى أن كل خطاب لا يخلو من وجود حجاج فيه، فيقول: " إن حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو العلاقة الاستدلالية، وليس العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة المدعي، ولا مخاطَب من غير أن تكون له وظيفة المعترض " (٣) .

ويرى أنّ " لفظ الحجاج لا يدور على الألسن مثلما يدور عليها لفظ التواصل، ولو أنه لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل باللسان " (٤) .

الحجاج في ضوء (البلاغة الجديدة):

شهد الدرس البلاغي في النقد الحديث نقلة نوعية انطلاقًا من العودة القوية للبلاغة، والتي تُعرَف بالبلاغة الجديدة .

---

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ٢٠٠٠م، ط٢، ص٦٥ .

(٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ط١، ص٢٥٥ .

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٦ .

(٤) السابق، ص٢٥٤ .

" ففي منتصف القرن العشرين أصبحت البلاغة في ثوب جديد ... فلم تقتصر على ما هو لساني في دراسة الصور والخطابات الأدبية؛ بل كانت تهتم بالحجاج في الخطابات الفلسفية، والأخلاقية، والاجتماعية، والقانونية والسياسية " (١) .

وهو ما يعرف باسم (البلاغة الجديدة) أو (بلاغة الحجاج) أو (الحجاج).

فقد مرت البلاغة – منذ القدم – بمراحل متعددة حتى وصلت إلى (بلاغة الحجاج) في القرن العشرين " فانتقلت من فن الخطابة إلى فن الإقناع، ففن الإمتاع، ثم فن الكتابة والبيان، ثم وصف الأسلوب والخطاب والصورة، ثم استجلاء ملامح الحجاج والتداول ... فالبلاغة الكلاسيكية هي بلاغة بيانية معيارية وتعليمية تساعد الكاتب أو الخطيب على كيفية الكتابة والإنشاء والخطابة؛ أي: هي أداة للإبداع، ووسيلة للتفنن في الكتابة؛ بغية الوصول إلى تأليف الكلام السامي، وأداة ناجعة لاكتساب ملكة الفصاحة والبلاغة والبيان " (٢).

هذا ما كانت عليه البلاغة القديمة، حتى وصلت إلى بلاغة الحجاج.

يقول **(ديكرو):** " صارت البلاغة فن ابتكار الاختيار والتعبير المزين بشكل ملائم، والذي يمكن استخدامه في الإقناع "(٣). وهي: " نظرية عامة للمحاججة بكل أشكالها: الشرعية، والسياسية، والأخلاقية، والجمالية، والفلسفية " (٤) .

كما يشير (صابر الحباشة) إلى هذا التطور الواضح للبلاغة؛ فيقول: " تُعرف البلاغة الجديدة بأنها نظرية الحجاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية، وتسعى إلى إثارة موالاة عقول الناس للأفكار المعروضة عليهم

---

(١) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، ص٦٥ .

(٢) المرجع السابق، ص٦٥ .

(٣) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ٢٠٠٧م، ط٢، ص١٦١ .

(٤) المرجع السابق، ص١٦٣ .

للقبولِ، والبلاغة الجديدة تفحص أيضًا الشروط التي تسمح للحجاج بأن يبدأ ثم يتطور، كما تفحص الآثار الناجمة عن ذلك التطور " [١] .

ويرى (جميل حمداوي) أنّ أهم ما يميز البلاغة بمفهومها الجديد أنه " إذا كانت البلاغة التقليدية بلاغة معيارية تعليمية تربط فن البلاغة بالخطابة والإقناع والإمتاع والبيان، فإن البلاغة الجديدة قد تعاملت مع الخطابات النصية المختلفة منذ منتصف القرن العشرين تعاملًا علميًا وصفيًا جديدًا، ضمن مجموعة من الاتجاهات: لسانية، وأسلوبية، وحجاجية، وتداولية، وسيميائية، وأكثر من هذا؛ فقد أصبحت للبلاغة اليوم إمبراطورية واسعة وامتدادات شاسعة " [٢] .

وهذا – في رأي الباحث – أهم ما يميز (البلاغة الجدية) أو (الحجاج)؛ فهذا الانفتاح في التعامل مع مختلف أنواع الخطاب – قديمها وحديثها – أدى إلى إثراء النظر في الشعر العربي القديم، ومحاولة دراسته بجوانب مختلفة غير تقليدية.

" فالبلاغة الجديدة هي الجانب الحجاجي التداولي من البلاغة القديمة؛ من خلال تلحيم أطراف الخطاب الأساسية، المخاطِب والمخاطَب، وإبراز البعد التأثيري والإقناعي للغة، والذي لا يظهر في البنية الصورية لنسقها الداخلي فقط، وإنما في القيم الخطابية المشحونة بواسطة الاستعارة، الإطناب، الإيجاز، وغيرها من الأشكال البلاغية التي تمارس فعاليتها الاجتماعية ووظيفتها الإقناعية التي تدفع إلى القيام بالفعل " [٣] .

---

(١) مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية – قراءة في شرح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠١١م، ط١، ص٢٩ .

(٢) من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، ص٦٥.

(٣) الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي: عمار ناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٩م، ط١، ص١٧ .

فيمكن من خلال هذا المفهوم الجديد للبلاغة أن يُدرَس الشعر العربي القديم بمعطيات البلاغة القديمة، وكذلك – في الوقت نفسه – يمكن توظيف ما أضافته بلاغة الحجاج.

الخاتمة:

فصّل علماء العربية – قديمًا – القول في الحجاج ، لكنهم لم يصلوا إلى نظرية متكاملة حوله؛ فقد جاء الحديث عن الحجاج – عند القدماء – في ثنايا القضايا المطروحة، مثل حجة القرآن الكريم، واحتجاج المشركين والرد عليهم، وكيفية تقديم الأنبياء لحججهم وإقناع أقوامهم بها، ومن ناحية أخرى فقد اعتمد علماء الحديث الشريف على علم الجرح والتعديل اعتمادًا كبيرًا، وهم يعتمد – في أساسه – على حجية الرجال بوصفها شرطًا أساسيًا لقبول الأخذ عنهم أو تركهم، ويضاف إلى هؤلاء أيضًا النحاة والبلاغيون؛ فمن خلال مؤلفاتهم وتقسيماتها يتضح مدى وعيهم بالحجاج وأهميته.

قائمة المصادر:

١- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: إشراف: حمادي صمود، منشورات كلية الآداب، منوبة- تونس [د.ط.ت].

٢- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨م، ط٧.

٣- التطور والتجديد في الشعر الأموي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩ [د.ت] .

٤- الحجاج الجدلي – خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي: عبد الله البهلول، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان ،٢٠١٣م، ط١.

٥- الحجاج في البلاغة المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر: محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ٢٠٠٨م، ط١.

٦- الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م، ط٢.

٧- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ط١.

٨- ديوان الكميت بن زيد الأسدي: تحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ط١.

٩- شاييم بيرلمان رائد البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، دار الريف، المغرب، ٢٠٢٠م [د.ط].

١٠- شرح شواهد المغني: جلال الدين السيوطي، تحقيق: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦م [د.ط].

١١- الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي: عمار ناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٩م، ط١.

١٢- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ٢٠٠٠م، ط٢.

١٣- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠٧م، ط٢.

١٤- لسان العرب: ابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ط.ت].

١٥- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ط١.

١٦- مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية – قراءة في شرح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠١١م، ط١.

١٧- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٨٥م، ط١.

١٨- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤م [د.ط].

١٩- النص والخطاب والاتصال: محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤ [د.ط].

٢٠- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية والسانية: محمد طروس، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م، ط١.